۱۶۶۰۲

مجله	الازهر
تاریخ نشر	ربیع الاول ۱۳۹۷
شماره	۳ ـ ل ۴۹
شماره مسلسل	
محلّ نشر	مصر
زبان	عربی
نویسنده	عبدالحفیظ فرغلی القرنی
تعداد صفحات	۵۲۰ - ۵۲۳
موضوع	الذوق الصوفی فی فهم القرآن
سرفصلها	فهم قرآن
کیفیّت	
ملاحظات	

الذوق الصوفي في فهم القرآن الكريم

للأستاذ الشيخ عبد الحفيظ فرغلي القرني

سمع صوفي قارئا يردد قوله تعالى: « ومن نعمره ننكسه في الخلق » فقال معلقا : ومن نعمره يحيا ننكسه في خلقنا .

وهذا التعليق ينبهنا الى أذواق الصوفية التي تلوح لهم حين ترد على أسماعهم الآيات الكريمة أو الأحاديث الشريفة ، أو أبيات الشعر المأثور أو الأدب المنثور وغير ذلك من الحكم والمواعظ ، بل ربما فهموا من الأقوال العابرة معنى يتفق مع ما يدور بخواطرهم ويشغل أذهانهم ويحكي وجدانهم ، ومن هذا القبيل ما يرويه « ابن عربي » في كتابه محاضرة الأبرار قائلا : ماشيت بعضهم بقرطبة أمام دار السلطان ، فاذا جماعة من الأجناد خرجوا من الدار يقولون : جاءت الرسل من قلعة رباح ، فاهتز من كان معه وجدا وقال : يا أخي أما تسمع لهؤلاء الأجناد ما يقولون ؟ قلت : وما قالوا ؟ قال : قالوا جاءت الرسل عليهم السلام يقولون : من أقلع عن معصية ربح ما عند الله .

هذا ما فهمه الصوفي يحكي به حاله ويشرح وجدانه عند كلمة عابرة سمعها من شخص عابر . فما باله اذا كان المسموع قرآنا نزل من عند المحبوب الأعلى الذي يجاهد الصوفيون أنفسهم للوصول الى معرفته والفوز بقربه؟ ومتى كانت العبارات المسموعة فيها اشارات صادقة ورموز ناطقة — على حد تعبير ابن عطاء الله السكندري في حكمه حيث يقول : العبارات قوت لعائلة المستمعين ، وليس لك الا ما أنت آكل — فان القرآن الكريم أولى بالمحققين أن يجدوا فيه غذاءهم الروحي ، ومددهم النوري ، وحبلهم القوي الذي يصلهم بالمتكلم ويربطهم به ، وهذا المدد هو الذي يجعل القرآن حاضرا في أرواحهم ، ماثلا في أذهانهم يستشهدون به على وقائع الأحوال ويتمثلون به فيما يمر بهم

من أحداث وأخبار — وتصوير القرآن الكريم بالقوت مستمد من حديث ابن مسعود — رضي الله عنه — ان هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ، ويروى مأدبة بفتح الدال وضمها ، قال القرطبي — رحمه الله — من روى مأدبة بالضم أراد الصنيع الذي يصنعه الله عز وجل للناس لهم فيه خير ومنافع ثم دعاهم اليه ، ومن رواها بالفتح ذهب الى الأدب .

وهذا الفهم الذي يفهمه الصوفية من القرآن هو ما يعنون به « المستنبطات » . وهي — كما يقول الطوسي — رحمه الله — في كتابه اللمع : ما استنبط أهل الفهم من المتحققين بالموافقة لكتاب الله — عز وجل — ظاهرا وباطنا ، والمتابعة لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — ظاهرا وباطنا ، والعمل بظواهرهم وبواطنهم فلما عملوا بما علموا ورثهم الله علم ما لم يعلموا ، وهذا علم مواريث الأعمال التي يكشف الله تعالى بها لقلوب أصفيائه من المعاني المذخورة والأسرار المخزونة وغرائب العلوم وطرائف الحكم مالا يدركه غيرهم .

واذن فالشرط الأساسي لهذه الادراكات الخاصة هو العمل ، استنادا الى الأثر الشريف : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وهذا الأثر يلتقي مع مفهوم الآية الكريمة: واتقوا الله ويعلمكم الله ، وأسرار القرآن الكريم وأنواره لا ينالها الا عالم عامل بعلمه مصداقا لقوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » وقوله تعالى : « ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

أحوال السامعين للقرآن الكريم :

والصوفي حين يسمع القرآن الكريم يسمعه على أطوار مختلفة . فمنهم من يسمع كأن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يلقيه ، فيتمثل حينذاك جالة النبوة الكاملة التي أرسل بها الى البشر هاديا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا .

ومنهم من يسمعه على أن جبريل — عليه السلام — هو الذي يقرؤه على النبي — صلى الله عليه وسلم — مستحضرا عند ذلك مفهوم هذه

الآية : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » .

ومنهم من يسمعه على انه من الحق جل وعلا ، متمثلا فى ذلك قوله تعالى : «وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة » ومستحضرا عظمة الخالق واشاراته الى خلقه بما هو نافع لهم فى عاجلهم وآجلهم . وللصوفية مع ذلك عند سماع القرآن حال توارثوه من توجيه الله تعالى — للمؤمنين ، حيث يقول : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون » وامامهم فى ذلك بعد النبى — صلى الله عليه وسلم — الصديق أبو بكر — رضى الله عنه — الذى كان اذا قرأ القرآن لا يكاد يسمع صوته من البكاء . حتى قالت ابنته السيدة عائشة — رضى الله عنها — حين طلب النبى — صلى الله عليه وسلم — فى مرضه أن يصلى أبو بكر بالناس : ان أبا بكر رجل أسيف لا يكاد يسمع صوته من البكاء . وهكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن سار على قدمهم من أمته .

ومحققو الصوفية يقرءون القرآن بفهمه ، فيتمثلون معانيه ويطبقونها على أحوالهم فتزعجهم آيات التخويف وتؤنسهم آيات الرجاء ، وقد يبدو هذا التأثر واضحا أحيانا وربما استتر مع تمكن الحال وقوة الاحتمال . فقد حكى أبو الحسن محمد بن أحمد عن أبيه — فيما يورده الطوسى فى كتابه — قال : خدمت سهل بن عبد الله ستين سنة ، فما رأيته تغير عند شىء كان يسمعه من الذكر والقرآن أو غير ذلك . فلما كان آخر عمره قرأ رجل بين يديه هذه الآية « فاليوم لا يؤخذ منكم فدية » فرأيته ارتعد وكاد يسقط ، فلما رجع الى حاضحوه سألته عن ذلك ، فقال : نعم قد ضعفنا ، وقرأ أحد تلاميذه سورة الفرقان ، فلما بلغ الى قوله تعالى : « الملك يومئذ الحق للرحمن » اضطرب وكاد يسقط ، فلما سئل عن ذلك قال : قد ضعفت ، وحين سئل عما يوجب قوة الحال أجاب : لا يرد عليه وارد الا وهو يتغلب عليه بقوة حاله ، فمن أجل ذلك لا تغيره الواردات وان كانت قوية ،

ولذلك أصل فى العلم وهو قول أبى بكر — رضى الله عنه — حين سمع رجلا يبكى عند قراءة القرآن فقال : هكذا كنا حتى قست القلوب . يعنى اشتدت وثبتت .

اختلاف المدارك فى فهم القرآن عند سماعه وتلاوته :

وكلمات الله قوت لقلوب عباده — كما سبق الاشارة — وغذاء لأرواحهم فكل يأخذ من هذا القوت على حسب استعداده ، فمنهم من يقف عند ظاهر اللفظ ، ومنهم من يستبطن معناه ويدرك منه ما لا يدرك غيره من دقائق الاشارات ولطائف الأسرار .

وهذا الادراك جاء من زيادة الفهم المتحصل لهم من العمل المثمر والعبادة المخلصة ، فان ذلك يثمر عند أرباب القلوب ثمارا يانعة عبر عنها العارف بالله الشيخ نعمة الله بن محمود النخجوانى فى مقدمة تفسيره «الفواتح الآلهية والمفاتح الغيبية » بقوله : « من استشعر بحكم القرآن واعتبر من عبره فقد استهدى منها الى معارفه وحقائقه ورموزه واشاراته ومكاشفاته ومشاهداته التى ما نزل عموم من عند الله الا لأجلها » .

وقد وردت اشارات كثيرة للصوفية حول آيات القرآن الكريم ، بل ان منهم من وضع تفسيرات كاملة ضمنها ما تحصل له من فهم وذوق خاص به . قال ابن عربى رضى الله عنه فى مقدمة تفسيره « طالما تعهدت تلاوة القرآن وتدبرت معانيه بقوة الايمان ، حتى استأنست بها فألفتها وذقت حلاوة كأسها وشربتها ، تكشف لى تحت كل آية من المعانى ما يكل بوصفه لسانى ، لا القدرة تفى بضبطها واحصائها ، ولا القوة تصبر عن نشرها وافشائها ، فتذكرت قول النبى الصادق — عليه أفضل الصلوات من كل صامت وناطق — ما نزل من القرآن آية الا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ولكل حد مطلع . وفهمت أن الظهر هو التفسير والبطن هو التأويل والحد هو ما تتناهى اليه الفهوم من معنى الكلام والمطلع ما يصعد اليه منه فيطلع على شهود الملك العلام ، وقد نقل عن الامام جعفر الصادق — رضى الله عنه — أنه قال : لقد تجلى الله لعباده فى كلامه ولكن لا تبصرون » .

وليس من الممكن أن تحصر العقول في فهم واحد للقرآن الكريم، فالقرآن بحر زاخر بالأسرار وكل يستخرج منها على حسب استعداده ومقدرته وهبة الله له . وقد ورد في بعض الآثار أن القرآن يحشر يوم القيامة بكراء وهذا هو الاعجاز الذي تحدى الله به البشر ، ولقد قال أحد الصوفية وهو سهل بن عبد الله رضي الله عنه : لو أعطي العبد لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية ما جعل الله تعالى في آية من كتاب الله تعالى من الفهم ، لأنه كلام الله وكلامه صفته وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه ، وانما يفهمون على مقدار مايفتح الله تعالى على قلوب أوليائه من فهم كلامه ، وكلام الله غير مخلوق فلا تبلغ الى نهاية الفهم فيه فهوم الخلق لأنها محدثة مخلوقة، وشبيه بهذا القول قول العالم الجليل الشيخ عبد ربه سليمان في كتابه فيض الوهاب جـ١ : «ولا يخفى عليك اجماع عقلاء الأمة من المحققين على أن في طي ظواهر الآيات القرآنية اشارات خفية تنكشف لأهل التحقيق من رواسخ العلماء ، ومعرفة ذلك ببعض الايمان وكمال العرفان » .

وليس مرد فهم الصوفية لأي القرآن الى الرأي والهوى ولكنه الفتح والوهب ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن القول في القرآن بالرأي وورد في ذلك « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » ومعنى هذا الحديث فيما يرويه القرطبي عن ابن عطية « أن الرجل تسأله عن معنى في كتاب الله فيتسور عليه برأيه دون نظر فيما قاله العلماء واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول، وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر فان القائل على هذه الصفة ليس قائلا بمجرد رأيه » .

فأضاف الغزالي في الاحياء : « من زعم أن لا معنى للقرآن الا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب في الاخبار عن نفسه ولكنه مخطيء في الحكم برد الخلق كافة الى درجته ، لأن الاخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعا لأرباب الفهم . قال علي —

رضي الله عنه — الا أن يؤتي الله عبدا فهما في القرآن ، فان لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ؟» .

ولقد كان المحققون من الصوفية من أدق الناس في فهم أسرار القرآن واشاراته التي يمنحها الله للعاملين المخلصين ، وقد فصلوا أحوال الناس عند سماع القرآن على الوجه الآتي :

— من الناس من سمع القرآن فغفلوا عن مراميه وفي هؤلاء يقول القرآن الكريم : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » .

— ومنهم من سمعوا فأجابوا وأنابوا ، وهؤلاء هم الموصوفون بقوله تعالى: « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » .

— ومنهم من سمعوا فتفكروا وعلموا فأثمر العلم خشية وورعا وهم الموصوفون بقوله تعالى: « انما يخشى الله من عباده العلماء » .

— ومنهم من سمع فأقبل بهمته على الله وحبه الخالص وقلبه الحاضر وهم الموصوفون بقوله تعالى: « ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » وهؤلاء هم الذين يستمعون الى القول فيتبعون أحسنه ، وليس معنى هذا ، المفاضلة بين الآيات لأن فيها حسنا وأحسن ، ولكن المفاضلة فيما ينكشف لهم من أعاجيب بعضها حسن وبعضها أحسن .

ما يقبل وما يرد من استنباطات الصوفية :

وللصوفية شروط فيما يستنبطونه من فهوم تتلخص في عبارة الطوسي: « أن لا يقدموا ما أخر الله، وألا يؤخروا ما قدم الله وألا ينازعوا الربوبية أو يخرجوا عن العبودية وألا يكون في استنباطهم تحريف للكلم عن مواضعه » .

وهذه الشروط مخرجة للشطحات التي لا تستقيم مع آداب الشريعة وأنوار الحقيقة . قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : ربما تنكشف الحقيقة لقلبي أربعين يوما فلا آذن لها أن تدخل الا بشاهدين من الكتاب والسنة .

وهذه دقة مابعدها دقة، فان أحدهما كان يكفي ولكنها الحيطة الواجبة والدلالة على أن الكتاب وسع كل شيء وقد فصلت السنة ما أجمل فيه، كما

فى عبارته دلالة أيضا على علمه الواسع وادراكه ما خفى على كثير غيره .

ويؤيد عبارة « الدارانى » قول سهل بن عبد الله رضى الله عنه : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل .

وعلى ذلك فان استباطاتهم لابد أن يجدوا لها ما يوافقها من الآثار لأنها لا تتعارض مع ما يشير اليه المفسرون فى تفسيراتهم المتداولة .

فالفهم الذى فهمه الصوفى من قوله تعالى: « ومن نعمره ننكسه فى الخلق » لا يتعارض مع التفسير التقليدى من أن التعمير كبر السن ، والتنكيس الضعف ، على نحو ما اشار اليه مثلا ابن كثير رضى الله عنه بقوله: « يخبر الله تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رد الى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط » .

فهل استنباط الصوفى من أن التعمير بالحب ينكس صاحبه فى الخلق يجافى هذا التفسير ؟ لا ، ولكنه فهم آخر أملته حالة وجدانية شاهدها الصوفى من قرائن الأحوال من أن المحب دائما مذهول عن نفسه ، وكلما ازداد حبه ، ازداد تولهه ووجده وسروره ؛ مما يترتب فيتأذى منه الناس ، وكثيرا ما يزدرونه ويحتقرونه ، والأثر الشريف يؤيد ذلك بقوله : « رب اشعث أغبر ذى طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره » وفيما يرويه معاذ ابن جبل رضى الله عنه : « ان الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين اذا غابوا لم يفتقدوا واذا حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة » .

وعلى هذا الفهم فالتعمير ليس مرده فى اللغة الى العمر وهو الزمن بل الى العمارة والزينة .

ولكن هناك استنباطات يرفضها محققوا الصوفية لأنها لا تستقيم مع المنهج الذى اشار اليه الطوسى فى صدر هذه العبارات ومن هذا القبيل الأمثلة الآتية :

سئل بعضهم عن قوله عز وجل « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر » فقال : معناه ما ساءنى الضر .

ـ وفسر بعضهم « يتيما » فى قوله تعالى «ألم يجدك يتيما فآوى»

بأن اليتيم مأخوذ من الدرة اليتيمة التى لا يوجد مثلها .

ـ ومن هذا الضرب ما ورد فى ايقاظ الهمم من فهم بعضهم من قوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون» فقد فهمها كما يأتى : من جعل الله حبه وهواه ، وأضله الله عن غيره على علم به ، وختم على سمعه وقلبه بحبه فلا يسمع غيره ولا يحب سواه ، وجعل الله على بصره غشاوة فلا يبصر الا به ولا يرى الا نوره ، فما يهديه هذه الهداية أحد بعد الله . فهذا الفهم فيه اقتطاع للآية الكريمة عن سياقها لأنها وردت فى حق الكافرين الذين اجترحوا السيئات الذين جعل الله سواء محياهم ومماتهم ، وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر .

ـ ومن ذلك قول أحدهم فى معنى قوله تعالى: «قل انما أنا بشر مثلكم»: أنا بشر مثلكم عندكم . قال صاحب اللمع تعليقا على ذلك وأمثاله : هذا وأشباه ذلك خطأ وبهتان على الله تعالى وجهل .

أمثلة من الاشارات المستحسنة :

ولكن هناك اشارات تتجاوب معها الأرواح لأنها صادفت شوقا لها ، وترجمت عن معنى مخزون وسر مصون ، فمن أمثلة ذلك ما قاله أبو العباس بن عطاء رضى الله عنه حين سئل : الى ماذا سكنت قلوب العارفين ؟ فأجاب الى أول حرف من كتاب الله وهو الباء من بسم الله الرحمن الرحيم ، فان معناه أن بالله ظهرت الأشياء وفيه فنيت وبتجليه حسنت وباستتاره قبحت وسمجت ، لأن فى اسمه الله هيبته وكبرياؤه ، وفى اسمه الرحمن مودته ومحبته ، وفى اسمه الرحيم عونه ونصرته .

وللحروف القرآنية أسرار عند الصوفية أشار الى بعضها المحققون منهم كابن عربى فى الفتوحات المكية ، والدباغ فى الابريز . وقد قال أبو سعيد الخراز رضى الله عنه فى أسرار الحروف : كلما بدا حرف من الأحرف من كتاب الله عز وجل على قدر قربك وحضورك عنده فله مشرب وفهم غير مخرج الفهم الآخر ، اذا سمعت قوله : ألم ذلك ، فللألف علم يظهر فى الفهم غير ما يظهر فى اللام ، وعلى قدر المحبة

وصفاء الذكر ووجود القرب يقع التفاوت فى الفهم .

وحضور القلب مهم جدا فى معطيات القرآن بنص محكم آياته « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ذلك أن الله لا يعطى أسرار كتابه لمعرض عنه أو غافل فى أثناء تلاوته أو شاغل قلبه بسواه ، وقد سمع « الشبلى » رحمه الله هذه الآية ففهم منها فهما يتناسب مع حاله ، ذلك أن حب الله كان شغله الشاغل ، فقد فهم من قوله تعالى « لمن كان له قلب » أى لمن كان الله تعالى قلبه ، وأنشد على الأثر :

ليس منى اليك قلب معنى
كل عضو منى اليك قلوب

وقد كان الشبلى صوفيا عالما فانيا فى الله وله أذواقه الخاصة فى فهم آياته ، قيل له « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » فقال : أبصار الرءوس عن محارم الله .

ومما ورد فى اللمع : كان أبو العباس بن عطاء يرى أن المحب يسقط عنه التعذيب ووجود الألم بصفات البشرية استنادا الى فهمه من قوله تعالى « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق » .

ومن هذا الفهم الدقيق لاشارات القرآن ما حددوا به مراتب الذكر على حسب ورودها فى الكتاب العزيز ، فقد قال الله تعالى : « فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا » ثم قال فى آية أخرى : « اذكروا الله ذكرا كثيرا » فهو أخصر من الأول ثم قال فى آية ثالثة : « فاذكرونى أذكركم » فصار الذاكرون متفاوتين فى ذكرهم كتفاوتهم فى المخاطبة لهم فى الذكر ، أو على حد تعبير أحدهم المذكور واحد والذكر مختلف ومحل قلوب الذاكرين متفاوت .

وقال ابن عطاء الله السكندرى فى كتابه « القصد المجرد فى معرفة الاسم المفرد » « الله » عن لفظ الجلالة أنه اسم الله الأعظم لأنه يدل على معنى حيثما أسقطت منه حرفا ، فان اسقطت الألف صار « لله » ولله ملك السموات والأرض ، وان ذهبت منه

اللام الأولى صار « له » وان ذهبت منه اللام الثانية صار « هو » وقال : الناس درجات فى معرفة الله ، فمن عرفه من جهة الايمان أطاعه ، ومن عرفه من جهة اليقين آثره ومن عرفه من جهة التوحيد عظمه ، ومن لم تفده المعرفة علما بالله وبصفاته ومزيدا فى حقيقة توحيده فهو محجوب والمحجوب مفقود .

وقال الصوفية عن الروح الوارد فى القرآن : الروح روحان ، روح به حياة الخلق ، وروح به ضياء القلب وهو الروح الذى قال الله عز وجل عنه : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا » .

وفى الحديث عن الرزق قال قوم سبب الرزق التكلف والعناية وهو قول القدرية ، وقال قوم : سبب الرزق التقوى وهو ظاهر القرآن : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » أما الفهم الصوفى فى ذلك فان سبب الرزق هو الخلقة لقوله تعالى « خلقكم ثم رزقكم » فلم يخص مؤمنا دون كافر . قال أبو زيد — فيما يروى الطوسى — رحمهما الله: أثنيت على رجل من المريدين عند بعض العلماء خيرا ، فقال العالم : من أين معاشه ؟ فقلت : لم أشك فى خالقه حتى أسأل عن رازقه . فخجل العالم وانقطع .

وفى الآية الكريمة « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله » ، قال أبو يزيد ، السابق مضروب بسوط المحبة مقتول بسيف الشوق مضطجع على باب الهيبة ، والمقتصد مضروب بسوط الحشرة ، مقتول بسيف الندامة مضطجع على باب الكرم ، والظالم مضروب بسوط الأمل مقتول بسيف الحرص مضطجع على باب العقوبة .

وقال غيره : الظالم معاقب بالندامة على الافراط والمقتصد مشتمل بالكلاءة والاحتياط والسابق بالخيرات ساجد على البساط للملك الوهاب .

وقال غيره : الظالم معاقب بالندامة على الافراط والمقتصد مشتمل بالكلاءة

والاحتياط والسابق بالخيرات ساجد بقلبه للحق على البساط • الظالم لنفسه بتلويح الاشارة محجوب ، والمقتصد بتصريح الاشارة مكنوف• والسابق بالخيرات بتصحيح الاشارة محجوب •

وجاء فى اللمع : سمع أحد الصوفية قول الله تعالى : «كلا ان معى ربى سيهدين » فأنشد :

لقد وضح الطريق اليك قصدا
فما أحد أرادك يستدل
فان ورد الشتاء فأنت صيف
وان ورد المصيف فأنت ظل

ويعلق القشيرى فى رسالته على قوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » قائلا : الذين زينوا ظواهرهم بالمجاهدات حسنت سرائرهم بالمشاهدات ، والذين شغلوا ظواهرهم بالوظائف أوصلنا الى سرائرهم اللطائف ، والذين قاسوا فينا التعب من حيث الصلوات جازيناهم بالطرب من حيث المواصلات •

كما يقول عن قوله تعالى : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة••• » : المساجد بيوت الارادة ، فالعابد يصل بعبادته الى ثواب الله والقاصد يصل بارادته الى الله •

ومن أجمل الأذواق فى الفهم ما يقدمه لنا فضيلة الأستاذ الشيخ عبد ربه بن سليمان القليوبى فى كتابة فيض الوهاب فى قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته » فهو يقول : طالما تمنى النبى صلى الله عليه وسلم أن يؤمن به الخلق أجمعون حتى لايفلت أحد الى النار ،وكان حريصا على ذلك كل الحرص ، فسلاه الحق عز وجل وأساه باخوانه الأنبياء والمرسلين •

ومعنى هذا أن الشيطان كعادته يحاول أن يقف دون تحقيق أمانى الأنبياء والمرسلين فى هداية الخلق بافسادهم وتزيين طرق الغواية لهم ، ولكن الله ينسخ ما يلقيه الشيطان فى نفوس بعض الناس فيهتدون

ويبصرون ، وبذلك يحكم الله آياته يحفظ عباده من غواية الشيطان وجعل القائه فتنة لمن سبقت عليهم الشقاوة وهم الذين كفروا •

وهذا الذوق أجمل ماقيل فى تفسير هذه الآية فان مختلف ما رأيناه فى التفاسير ومن بينها القرطبى وابن كثير والكشاف يدور حول قصة الغرانيق ، وهى لا تستقيم مع عصمة النبى صلى الله عليه وسلم وحفظ الله اياه من وسوسة الشيطان ، وقد أثبت الله فى محكم كتابه عدم تمكن الشيطان من عباده المؤمنين فضلا عن صفيه ورسوله الأمين •

وقد حاول بعض المفسرين رضى الله عنهم تأويل هذه الآية تأويلا يتناسب مع حفظ الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك ما أشار اليه القرطبى منقولا عن ابن العربى من أن فى بمعنى عند ، والمعنى ألقى الشيطان فى نفوس الكفار عند تلاوة النبى صلى الله عليه وسلم • وقد قرظ القرطبى هذا الوجه وأثنى عليه•

ومن أذواق الشيخ عبد ربه أيضا وهو مسبوق بأذواق الصوفية وبعض المفسرين الذين لا يقفون عند حدود اللفظ مايفهمه من قوله تعالى:«يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » فيقول : يخرج الصالح من الطالح ويخرج الطالح من الصالح مستشهدا بقوله تعالى لابراهيم عليه السلام : « انى جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين » وقد يخرج من المؤمن كافرا كنوح وابنه ، ومن الكافر مؤمنا كآزر وابنه ابراهيم عليه السلام •

فواتح السور :

ومن استنباطات الصوفية التى فهموها من القرآن الكريم ماتحدثوا به فى فواتح السور من أمثال«ألم» و «ألر» وقد أختلف العلماء فى بيان مراميها حتى قال بعضهم فى «الر» مثلا هى حروف من الرحمن،وبعضهم: هى أوائل حروف أسماء الله ،فالألف من الله ، واللام من اللطيف ، والراء من الرحمن •• وهناك أقوال كثيرة أخرى •

ولكن بعض الصوفية فهموا منها أنها تشير الى الانسان الكامل الحقيق بتوجيه الخطاب اليه فى قوله تعالى

« ذلك الكتاب لاريب فيه » وفى قوله تعالى : « تلك آيات الكتاب الحكيم »

ونعود فنقول ان هذا الفهم لا ينفى الفهوم الأخرى، وهناك فهم آخر فهمه الشيخ عبد ربه أيضا فى « كهيعص وحمعسق » نجده فى فيض الوهاب جه وخلاصته: ان الحروف الخمسة فى «كهيعص» لها تعلق بالأحرف الخمسة فى « حمعسق » اذ كل حرف من هذه الحروف ينبىء عن حالة خاصة نجدها فى آيات من القرآن يبدأ أولها بحرف من حروف «كهيعص» وينتهى بحرف من حروف «حمعسق» • وهذه الآيات يخبر الله فيها عن حال الدنيا والآخرة ، وحال الناس فى اليوم الآخر •

ومصيرهم فى الآخرة ، وتفسير ذلك فيما يلى :

١ ــ فى تصوير الدنيا قال تعالى : « كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح » فالحرف الأول (ك) والحرف الأخير (ح) •

٢ ــ وان الذى صنع ذلك وأجراه « هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم» فالحرف الأول (هـ) والأخير (م) •

٣ ــ وبعد انتهاء الدنيا لا تكون الا الآخرة « يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » فالحرف الأول (ى) والأخير (ع) •

٤ ــ هناك يتضح لكل نفس ما عملت « علمت نفس ما أحضرت فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس» فالحرف الأول (ع) والأخير (س) •

٥ ــ ثم أخبر الله عن حسرة الكافرين « ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » فالحرف الأول (ض) والأخير (ق) •

نقول : هذا فهم توصل اليه الشيخ عبد ربه ــ رحمه الله ــ من طول تدبره وكثرة قراءته للقرآن الكريم وليس فيه ما يعارض نصا صريحا واردا فى معنى هذه الحروف التى كثرت الأقوال فى مراميها ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ولا تعارض بين آياته لدى الذى أعطاه الله نورا وهدى ويقينا •

ومن الفهم الصوفى للقرآن ذلك الفهم الذى نجعله حسن الختام فى قوله تعالى فى صفة المؤمنين : « ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون » يقول ذلك الفهم : ان الاشراك هنا المقصود به الشرك الخفى الذى يعارض القلوب من رؤية الطاعات وطلب الأعواض ؛ لأنه هو الذى يستقيم مع وصف المؤمنين بالخشية والايمان وكثرة الوجل والايقان بلقاء الله والمسارعة فى الخيرات ، وهذه صفات خالصة لأصحاب القلوب النقية المبرأة من رجس الشرك وأهواء الكفر ، فالشرك المنفى اذن هو الشرك الخفى الذى يلابس قلوب الطائعين من رؤية ثمرات الأعمال • قال الحلاج رضى الله عنه : علامة العارف أن يكون قلبه فارغا من الدنيا والآخرة ، وسئلت رابعة رحمها الله عن الجنة فقالت : الجار ثم الدار •

هذه لمحات من فهم الصوفية لاشارات القرآن الكريم وارداته لم يهتدوا اليها الا بالفتح والالهام الذى جاء ميراثا لجهاد متواصل وعمل دائب صاحبه الاخلاص والحب واليقين والتدبر فى آيات اللطيف الخبير •

عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

قال بعض الحكماء :

اربعة من علامات اللؤم :

افشاء السر ، واعتقاد الغدر ــ تبييته والتواؤه ــ ، وغيبة الأحرار ، واساءة الجوار.